شرح
نهاية الحكمة

للعلّامة الفيلسوف والحكيم والمفسّر الكبير
السيّد محمد الطباطبائي قدس سره

شرح وتحقيق
محمد المؤمن

الجزء الأوّل

مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٥ م - ١٤٣٦ هـ

The Arabic History Est.
Printing, Publishing & Distribution

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة و النشر و التوزيع

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٠١/٥٤٠٠٠٠ - ٠١/٤٥٥٥٥٩ - فاكس٠١/٨٥٠٧١٧

Beirut - Airport Road - behind Golden Plaza - Tel. 01/540000 - 01/455559 - Fax. 01/850717

www.dartourth.com darturath2012@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على نبيِّ الرحمة ومنقذ الأُمّة سيّدنا محمّدٍ وعلى آله الطّيّبين الطاهرين سيّما بقيّة الله في الأرضين، واللعن الدائم على أعدائهم إلى يوم الدين.

«اللهمّ وصلّ على وليِّ أمرك القائم المؤمّل والعدل المنتظر وحفّه بملائكتك المقرّبين وأيّده بروح القدس يا ربّ العالمين».

لا يخفى على إخواني من أهل الفضل والكمال أنني كنت شديد الشوق إلى تذييل كتابي شرح بداية الحكمة بخاتمة أو تصديره بمقدّمة تحتوي على بيان نبذة من حياة المؤلّف ﷺ ومطالب حول الفلسفة والحكمة الإلهيّة لا يستغنى عنها طالب الفلسفة والحكمة لا سيما في الأعوام الاولى من دراسته الحوزويّة، بل أقول جازماً انّه يكون بأمس الحاجة اليها، ولابدّ له من الإلمام والاحاطة بها، لكن الظروف حالت دون كتابة ما كنت أرمي إليه، وأعرضت عنها آملاً أن تواتيني الفرصة ويبتسم لي الحظُّ وتكتب لي السّعادة بشرفِ النيل بهذه الأُمنية التي تكلّلت بالنجاح ونفث فيها الرّوح، فدمدمت فيها الحياة بتوفيق من الواجب تبارك وتعالى وتشويق من الاخوة الأفاضل طالبي الحكمة والفلسفة النظريّة وسالكي مدارجها العملية، حيث أنّهم شدّوا على يدي وأخذوا بساعدي وملؤني شوقاً إلى كتابة شرح على نهاية الحكمة، وان كنتُ قبل ذلك قد وفّرت جهدي وشحّذتُ همّتي وهممتُ إلى

كتابة شرح وافٍ على منظومة السبزواري أعلى الله مقامه الشريف، غير انني نزولاً عند هذه الرغبة وتلبية لنداء اخوةٍ لي في الله تبارك وتعالى واستجابةً لحسن ظنّهم أعرضتُ عن تلك الغاية إلى هذه المنية فالشكر والثناء للواجب تعالى ولاولئك الّذين اولوني حسن ظنّهم.

ثم انني لمّا بلغت مناي بحمد الله الواحد الأحد بتأليف هذا الشرح المفصّل المبسوط رأيت أن أُصدّره بالمقدّمة التي حالت الظروف دون تدوينها واضافتها في شرح البداية وستأتى عن قريب ان شاءالله تعالى.

ملاحظات لا بأس بها

أولاً: قمت بكتابة هذا الشرح بعد انتهائي من تدريس متن الكتاب والتعليق عليه أثناء التدريس.

ثانياً: ما نقلت شيئاً عن جهابذة هذا الفن إلّا وذيّلته باسمه والمصدر الذي عنه نقلت الكلام، وذلك حفظاً للأمانة ورعاية لحقوق الآخرين.

ثالثاً: كلُّ ما نقلته عن جهابذة هذا الفن وأساطينه لم يأتِ إلّا من باب الاستشهاد بأقوالهم أو زيادة بيان لرفع ما هو غامض أو لأزيد الطالب سعةً في الاطلاع.

رابعاً: بذلت قصارى جهدي لتبسيط المطالب، وكون الشرح وافياً رافعاً لكل غموض غير تارك أمام طالبها وقارئها أي تعقيد وغموض وأتمنى أن يكون كما وصفت.

خامساً: ثم ما كان منه صحيحاً مطابقاً للواقع والصواب فخذوه، وما كان مخالفاً لهما فردّوه اليّ ونبهوني عليه، وما اشتبه أمره عليكم فذروه في سنبله، وجلّ من لا يسهو، وخير اخواني من أهدى إليّ عيوبي.

سادساً: حاولت في المراحل الأخيرة وفصولها أن أتوخى واراعي الايجاز ما استطعت بعدما رأيت اطالة وحشواً زائداً في المراحل الأُولى من الكتاب.

سابعاً: أضفت الى شرح الكتاب في بداية كلّ فصل موجزاً ملخّصاً لذلك الفصل تحت عنوان «نقرأ في هذا الفصل»، عسىٰ أن يكون عوناً للطّالب والاستاذ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

محمد مهدي المؤمن

٢٣ رمضان عام ١٤٢٠ / قم المقدّسة

قبسات من حياة المؤلّف (طاب ثراه)

إذا كان الانسان في منطق الحكماء والفلاسفة «حيواناً ناطقاً» وموجوداً عاقلاً قادراً على التعقّل والتفكّر في حقائق الأشياء جزئيّها وكلّيها واقتصروا على هذا الجانب من شخصيّة الإنسان وحقيقته الذاتيّة حتّى قال الشاعر الفارسي:

ای برادر تو همه اندیشه‌ای ما بقی‌را استخوان وریشه‌ای

ومعناه أيّها الانسان والأخ لست سوى التفكّر والتعقّل، وما عدا ذلك فأنت مجرد عظام وجذور.

أقول: إذا كان الحكماء والفلاسفة الإلهيون صوّروا الانسان هكذا واقتصروا في بيان حقيقته على هذا الجانب وهذه الذاتية من ذاتياته، فإنّ علماء الأخلاق سبروا اغواره وغاصوا في أعماقه ليخرجوا دفائن ذاته وحقيقة سماته، وذلك أنّهم وجدوه في واقع الأمر ذا بعدين متقابلين يشكلان الجانب الأخلاقي فيه وتمام ذاته، لأنّه عاقل متفكر من جهة، وذو غرائز وشهوات من جهة أُخرى، فالحيوانيّة التي هي جنسه الأخير تمثل بعده الغرائزي الشهواني، وبعبارة أُخرى غرائزه وشهواته تمثل جهة حيوانيته، والناطقية التي هي فصله تمثّل بعده العقلاني، وهو في الواقع كما تبيّن لا يختلف كثيراً عما اختاره الحكماء، غير ان حاجة الحكيم والفيلسوف تقتصر على الجانب العقلاني من الانسان فهو مدار بحثهم، بخلاف الأخلاقي فإنّه يبحث عن كلا الجانبين ولا يستغنى عن أحد البُعدين، لأنّ شأنه معرفة مصادر الخير والشرّ ومجاريها ثمّ التمييز بينها، والعمل على نبذ الشر من جذوره واصوله

وتعزيز قوى الخير وذلك بإخضاع الغرائز والشهوات والقوى الحيوانية تحت سلطة القوى العقلانية والرحمانيّة.

ومن هذا المنطلق أعدّت الشريعة المقدّسة على سبيل التأسيس تارة وعلى سبيل الارشاد إلى حكم العقل او العرف وسيرة العقلاء تارةً أُخرى منهجاً سلوكياً يتكفّل برقيّ الانسان وتعاليه إلى أقصى واعلى مدارج الكمال ومراتب قرب ذي الجلال، فيطير الانسان ويعرج إلى السماء بجناحين جناح العقل وجناح الشرع وكلاهما ذو حقيقة واحدة اذ ما حكم به أحدهما حكم به الآخر والتلازم بينهما ذاتي لا يقبل الانفكاك بوجه من الوجوه، ولا يسعنا خوض غمار هذا المبحث لأنّه من اختصاص علم الاخلاق فيطلب من أهله في محله.

والحاصل ان من المؤمنين رجالاً استفرغوا وسعهم وبذلوا غاية جهدهم لنيل المعارف الإلهية واكتساب الفضائل السلوكية، فنالوا مناهم وحقّقوا ما أمّلوا وفازوا بكلتا الفضيلتين من كمال العقل وكمال النفس، اذ «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء» ولولا تهذيب النفس لم تكن قلوبهم أوعية خيرها أوعاها، ولم تستحق حينئذٍ ان تكون ظرفاً للعلوم والمعارف الإلهية اذ «كل إناءٍ بالذي فيه ينضح» وقوله تعالى: ﴿إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾ خصّ الكمال مطلقاً بصاحب القلب السليم، وإلّا فالّذين في قلوبهم مرض أو ﴿قالوا قلوبنا غلف﴾ اغلق الشيطان عقولهم وأوصد أبواب قلوبهم على العلوم والمعارف السّماوية وصدّهم عن ذلك كلّه.

وممّن حَبَاه الله بقلبٍ سليم وامتحن الله تعالى قلبه للايمان وفتح عليه أبواب رحمته وأمطره بوابل من الخيرات وأعطاه ما لم يعط كثيراً من الناس وتفضّل عليه بسحائب البركات، وسلك به طريق الأولياء والخواص، وسقاه من ينابيع العلم والمعرفة وحفّه بملائكه يدعون له ويحفظونه ويستغفرون له، مولانا صاحب هذا الكتاب ومؤلّف هذا السِّفر القيّم النادر من نوعه فمن هو العلّامة وما هي خصائصه؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال أقول مقدمةً: أنّ معرفة حياة العظماء والعلماء مسؤولية كلّ من يعيش في كنفهم وتحت ظلّهم الظّليل ويستذوق عذب ماء الحياة ببركة وجودهم، وعظمة الأمّة رهينة بعظمة مؤسسيها وعلمائها وحكمائها وممهّدي سُبُلها، ولا شك ان عظمة الاسلام تكمن في عظمة صاحب الدعوة والرسالة أعني خاتم الأنبياء والرّسل سيّدنا ومولانا ونبيّنا محمد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله ثم يتلوه أهل بيته الأطهار وخلفاؤه الأئمّة الأبرار من ذرّيته عليه وعليهم آلاف التحية والثناء والصلاة والسلام، وبعد ذلك علماء هذه الأمّة وخيارها، فمعرفة عظماء الامة كمال في حدّ ذاتها، أضف إلى ذلك ان هذه المعرفة وهذا الإلمام خير سبيل لتهذيب النفوس وتزكيتها ونشر الفضائل للتأسّي بها ﴿ولكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

فالغاية من هذه الأسطر أن أكون قد اضفت الجانب الأخلاقي والحكمة العملية إلى الجانب العلمي العقلاني وإلى الحكمة النظرية، وجمعت بين العقل النظري والعقل العملي، وأكون قد بيّنت لطالب الحكمة والفلسفة طريق التهذيب والكمال، بايراد السيرة العملية للمؤلف ﷺ على نحو الايجاز، فأكون بذلك قد نلت شرفاً آخر، وجمعت فضيلة بسط العلم ونشره إلى جانب فضيلة أُخرى هي بسط الأخلاق والعرفان العمليين ونشرهما، وبهذا يضاف اسمي إلى صحيفة الذين حازوا مرتبة الشرف في نشر الكمالين والفضيلتين واشاعتهما. آمين.

ومَنْ أفضل مِنْ هؤلاء الجهابذة والعباقرة وأصحاب الكمالات وجامعي الفضائل ليكونوا اسوة يقتدى بهم سيّما في هذه العصور التي طغت فيها المادّة والمادّيات حتّى نشبت مخالبها في قلوب الناس ونشرت ظلامها على النفوس فانبثق عنها اطفاء نور العقول ليعيش العالم جاهليّة جهلاء سُمّيت بجاهلية القرن لعشرين ويا لها من جاهلية لم يسبق لها نظير من قبل، ورغم ما أحاط بالعالم من

ظلمات وانحطاط في المعنويات والكمالات النفسية وظهور مكاتب مادية سوفسطائية ـ وان أطلقوا عليها عناوين فلسفية وخُيّل لهم أنها مبرهنة بالجزم واليقين ـ أقول رغم كل هذه الأباطيل والتلاعب بعقول الناس والأُمم، وادّعاء ظهور فلسفات جديدة استفحلت كالسرطان في بواطن الشعوب وجرفت معها إلى الهاوية اعداداً هائلة من الناس، إلّا أن الأرض كما أراد باريها جلّ جلاله لا ولن تخلو من الصّالحين الذين أعرضوا عن الدنيا وزخارفها وتركوا الأهل والديار طلباً للعلم والمعرفة والتكامل والتهذيب وليتفقهوا في الدين وينالوا بذلك مرتبة النيابة العامّة عن المعصوم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم فيكونوا حجةً على العباد وهو حجة الله عليهم، وهؤلاء الحجج على العباد حملوا راية هذا الدين وتحمّلوا مسؤولية اصلاح المجتمعات البشرية وقاموا على مرّ التاريخ بهداية الناس ونشر الفضائل والعلوم والمعارف الإلهية التي وصلتهم من المعصوم عليه أفضل صلوات المصلين، وعلى رأس هؤلاء النواب بالنيابة العامّة والحجّة على عامة الناس مولانا الامام الخميني قدّس الله نفسه الزكية الذي سيأتي بعض الكلام عن انظاره وآرائه الفلسفية بما يُناسب المقام ـ إن شاء الله تعالى ـ.

العلّامة في سطور:

لا شك انّه كان حكيماً الهياً وعالماً ربانياً اسوة لأهل التقوى واليقين وكان تمثالاً من الزهد وبحراً غنياً من العلم والمعرفة، عدّه البعض من ذخائر الله في الأرض والحق انّه مفخرة قلّ مثيله من مفاخر الاسلام، عاش معرضاً عن الدنيا وزخارفها ولم يأخذ منها إلا ما يتوقف عليه العيش واقتصر على الضروري منها فانجذب اليه كل قاصٍ سمع به، وذاب فيه كل دانٍ رآه وعاشره، وكان ﷺ من مصاديق قول مولانا امير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين في خطبة المتقين وهي الخطبة رقم ١٩٣ «فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهُمُ الصَّوابُ،

ومَلَبسهُمُ الاقتصادُ، ومشيُهُمُ التواضعُ، غَضُّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالّتي نزلت في الرّخاء، ولولا الأجلُ الذي كُتب لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون وهم والنار كمن قد رأها فهم فيها معذّبون، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة... إلى قوله عليه السلام: أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، واسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يُرتّلونَهُ ترتيلاً... إلى قوله عليه السلام: فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم واطراف اقدامهم يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم، واما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد برأهم الخوف بري القداح، ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض... لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون...

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوةً في دين، وحزماً في لين، وايماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم وصبراً في شدّة، وطلباً في حلال ونشاطاً في هُدى، وتحرّجاً عن طمع، يعمل الاعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمّه الشكر، ويصبح وهمُّه الذكر... ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤْلها فيما تحبّ، قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره.... الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون، ان كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وان كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو

عمّن ظلمه، ويعطى من حرمة، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليّناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفة، مقبلاً خيره، مدبراً شرُّه... لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحبّ، يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه، ... ان صمت لم يغمّه صمته، وان ضحك لم يعل صوته، وان بُغي عليه صبر حتّى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة... الخ».

هذه مقاطع مختارة من الخطبة الغراء التي يصف فيها المتقين. وهي دليل لسالكي طريق التقوى واليقين، وميزان يوزن بها أهل التقوى، وفرقان يفصل بين أهل الآخرة والدنيا، أو بينهم وبين من خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً فلم يكونوا من هؤلاء ولا اولئك، فعسى الله تعالى ان يغفر لهم.

ولقد كان العلامة ﷺ أحد مصاديق هذه الخطبة مستجمعاً لما ورد فيها من الصفات والكمالات شهد له بذلك كل من عرفه أو عاشره وصاحبه قليلاً أو كثيراً، واذ تجلّت فيه تلك الحقائق، وتصاعدت منه أنوار هذه الفضائل، وصبغته بصبغة ربّانية، أصبح علماً من أعلام الدين، وعارفاً يهدى إلى الحق واليقين، ومشعلاً ونبراساً يضيء الطريق لسالكي سُبُل الكمال، ومصباحاً في سماء حوزاتنا العلمية المباركة من النجف الأشرف شرف الله قدرها بمولانا أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين، وأعاد لها عزّها قريباً عاجلاً، إلى حوزة قم قدّسها الله تحت ظلّ كريمة أهل البيت عليها وعليهم افضل الصلوات وأتمّ التسليم، حيث عش آل محمد ﷺ، فإنه أصبح اسوة لطالبي العلوم الدينية وسالكي طريق التزكية والتهذيب.

أما نسبه:

وقد رأيت بخطّه الكريم هذا النسب الشريف على النحو التالي: هو محمد حسين بن محمد بن محمد حسين بن الحاج الآميرزا على أصغر شيخ الاسلام بن

الآميرزا محمد تقي القاضي بن الآميرزا محمد القاضي بن الآميرزا محمد على القاضي بن الآميرزا صدر الدين محمد بن الآميرزا يوسف نقيب الأشراف بن الآميرزا صدرالدين محمد بن مجد الدين بن السيد اسماعيل بن الأمير علي اكبر الشهير بميرشاه بن سراج الدين الأمير عبدالوهاب بن الأمير عبدالغفار بن السيد عماد الدين أمير الحاج بن فخرالدين حسن بن كمال الدين محمد بن السيد حسن ابن شهاب الدين علي بن عماد الدين علي بن السيد أحمد بن السيد عماد الدين بن أبي المحسن علي الشهاب بن أبي المحسن محمد الشاعر بن أبي عبدالله أحمد الشاعر بن أبى جعفر محمد الأصغر بن أبي عبدالله أحمد بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل الدِّيباج بن ابراهيم الغمر بن الحسن المثنّى بن الامام الحسن بن علي عليه السلام وابن فاطمة بنت الامام الحسين بن علي عليه السلام .

ألقابه:

الحسني والحسيني والطباطبائي.

فلقّب بالحسني لنسبته عن طريق الأب بالامام الحسن المجتبى عليه السلام، ولقّب بالحسيني لنسبته عن طريق الام بالامام الحسين عليه السلام ، وقد لقّب رحمه الله بالطباطبائي لنسبته إلى السيد ابراهيم طباطبا كما صرح بذلك المرحوم السيد محسن الأمين في كتابه أعيان الشيعة، وابراهيم هذا على ما جاء في كتاب «معجم الألقاب في معرفة الأسر والألقاب»، هوالجدّ الأكبر لطائفة بني طبا وبنو طبا طائفة كبيرة من الهاشميين لهم أصالتهم وشرفهم وأمجادهم ومناعة طبعهم وفضلهم وشهرتهم ووضوح نسلهم وأصلهم وهم من سلالة ابراهيم المشهور بطباطبا.

ثمّ أنّه قد وقع الخلاف في سبب توصيف ابراهيم هذا، بلقب طباطبا وتعدّدت الأقوال فذكر أبو نصر البخاري أن سبب ذلك لكنة كانت في لسانه ينطق القاف طاءاً

وبينما كان والده ذات مرة صحبه إلى السوق وهو صبي وخيّره بين أن يشتري له قباءاً أو قميصاً. فاختار الصبي القباء وقال مرتين «طباطبا» وهو يريد ان يقول «قباقبا» فلقب من حينها بهذا اللقب. وذكره ابن خلّكان في وفيات الأعيان وجعل ذلك وجهاً لتسميته بطباطبا.

وقيل: سبب ذلك انّه رآى النبيّ ﷺ في يقظته أو منامه عند قبره الشريف بالمدينة المنورة فأخبره عن نسبه انّه «طيباً طيباً» وهو في عرف الناس يتم اختصاره بلفظ طباطبا. وليس يؤيد هذا الادعاء شيء من المصادر المعتبرة بهذا الخصوص.

وذهبت طائفة إلى ان وجه تسميته وتوصيفه بذلك يرجع إلى كونه من شجرتين طيبتين الحسن والحسين عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا يخالف الواقع حيث ان كثيراً من السادات والعلويين والهاشميين تعود نسبتهم إلى الامامين الحسنين عليهما آلاف التحية والثناء ولم يلقبوا بذلك.

ومنهم من زعم ان الوجه فيها عائد إلى كونه متّصلاً في شجرته من جهة الأبوين بالامام أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين، وهذا واضح البطلان أيضاً كسابقه.

نعم، ذكر البيهقي في «لباب الأنساب» نقلاً عن «تهذيب الأنساب» للنيسابوري ان لفظ «طباطبا» أصله نبطيٌّ يعني سيد السادات وبما ان ابراهيم كان يقطن في ضواحي مدينة الأنبار العراقية أيام خلافة المهدي العباسي لقبه أهل تلك الضواحي والمناطق بطباطبا لصلابته في الايمان وجلالة قدره. وحسّنه بل أكّده السيد محمد محيط الطباطبائي في مقال نشرته صحيفة ايرانية بهذا الخصوص وهكذا عليّ الأوسي في كتابه الذي يحقق فيه اسلوب العلامة ﷺ في تفسير الميزان.

مولده ونشأته:

كانت ولادته في التاسع والعشرين من ذي الحجة عام ١٣٢١ هـ ق في منزل والده بمدينة تبريز الايرانية الواقعة في شمال غرب ايران وهي مدينة اشتهرت بحوزاتها العلمية الغنية بالعلماء وأهل الفضل والكمال منذ الايام الاولى من الحكم الصفوي حيث اتخذها الشاه اسماعيل الصفوي مؤسس الدّولة الصفوية عاصمةً له، كما أنها مهد الشعراء والأبطال والمجاهدين وأُحد أهم مراكز شيعة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام منذ مئات السنين، كانت ولادة المؤلف ونشأته في هذه المدينة في اسرةعريقةاشتهرت بالعلم والفضل والكمال.

فقَدَ أُمَّه في الخامسة من عمره وفَقَدَ أباه في التاسعة من عمره، ليصبح يتيم الأبوين ولم يبق إلّا أخ له يسمى محمد حسن الطباطبائي المعروف بالإلهي، وكيف كان فقد قام وصيُّ أبيهما برعايتهما وتكريمهما أحسن تكريم، ومن ذلك انّه اعتنى بتعليمهما وتربيتهما فأرسلهما إلى الكتاتيب والمدارس القائمة حينذاك، لكي يتعلّم القرآن الكريم تلاوة وحفظاً ثم يتعلم أو يحفظ كتباً قيّمة من الأشعار ودواوين الشعراء والأخلاق والتاريخ والمبادىء العربية والحساب. والخط وما أشبه، فاستغرقت ستة أعوام من حياته منذ التاسعة حتّى الخامسة عشرة من عمره.

ثمّ التحق بمدرسة الطالبية في مدينة تبريز وتعلّم فيها الأدب العربي من اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والشعر والقريض والنثر والاملاء وما أشبه ذلك من العلوم العربية، والعلوم الاسلامية العقلية والنقلية والفقه والاصول واستطاع خلال ثمانية أعوام أن ينهى كلّاً من الكتب التالية، الأمثلة وصرف مير والتصريف والعوامل والانموذج والصمدية والسيوطي والجامي والمغنى والمطوّل واللمعة الدمشقية ومكاسب الشيخ الأنصاري ومعالم الدين والقوانين ووسائل الشيخ الأعظم وكفاية الآخوند والرسالة الكبرى وحاشية المولى عبدالله وشرح

الشمسية والاشارات للشيخ الرئيس ابن سينا ﷺ وكشف المراد. وأهل العلم والفضل يعلمون مدى عمق هذا المنهج وما فيه من تعقيد مما يستغرق شطراً كبيراً من عمر طالبيه ودارسيه وكثيراً ما ينتهي بصاحبه إلى فشل ذريع فيضطرُّ إلى ترك الاستمرار أو البقاء على حاله من الجهل. لكن المؤلف ﷺ تكلّلت مساعيه بالنجاح وتفوق على أقرانه إذ أنهى دراسته لهذا المنهج الشاق المعقد خلال ثمانية أعوام، وهو أن دلّ على شيء فخير دليل على فطنته وذكائه وتوفيقه واجتهاده في طلب العلم.

من لطائف الأُمور وأعجبها التي يأتي على ذكرها المؤلف بنفسه وبخطه الكريم، أنه لم يكن في الأعوام الأربعة الاولى من حياته الدراسية والحوزوية راغباً في طلب العلم ولهذا لم يتعلم ولم يستوعب شيئاً من دروسه قط وكان شديد الكراهية للتعليم وكاد أن ينقطع عن مواصلة التعليم إلّا أن العناية الإلهية شملته وأحاطت به من كلِّ جانب فتغيرت مشاعره تجاه طلب العلم وحدث له اقبال شديد وقوّة استيعاب وادراك جعلته يواصل مسيرته العلمية بجدٍّ واجتهاد قل لهما من نظير طيلة سبعة عشر عاماً لم يشعر خلالها بكلل ولا ملل بل كله أمل وسباق مع الزمن وتحدٍّ لكلِّ المعوقات التي كانت تحول دون نجاحه واستمراره، حتّى أنهى تعلمه على هذا المنوال وتفرّغ بعد ذلك للتدريس والتأليف في العلوم العقلية والنقلية.

والمؤلف ﷺ يقول عن نفسه في تلك الفترة ماهذا مضمونه: شعرت شيئاً فشيئاً بالرغبة في طلب العلم وازدادت هذه الرغبة يوماً تلو يوم، وسرعان ما شعرت بأني أعشق طلب العلم وأهواه وأحبه حُبّاً جمّاً لا يوصف حتّى صار يشغل بالي كلّه ويملأ أحاسيسي ومشاعري، فمضيت بعون الله تعالى طيلة سبع عشرة سنة في طلب العلم معرضاً عن جميع ملذات الدُّنيا وزخارفها وتركت صحبة غير أهل العلم وانكببت على طلب العلم بكل أحاسيسي ومشاعري واكتفيت في اكلي وشربي ونومي وسائر حوائج الحياة وضرورياتها بالأقلّ الأدنى وروَّضتُ نفسي والبستها

ثوب القناعة والايثار، فلم يشغلني شيء عن طلب العلم ليلاً أو نهاراً حتّى كنت أقضي بعض الليالي ساهراً إلى طلوع الشمس لا اشتغل بشيء سوى طلب العلم، ولم أحضر درساً إلّا وقد قمت بالتحضير له قبل حضوره، تحضيراً يغنيني عن الدرس إلّا لزيادة توكيد واطمئنان.

هجرته إلى النّجف الأشرف:

هاجر المؤلّف ﷺ وأخوه إلى النجف الأشرف ملتحقاً بالحوزة العلمية المباركة هناك واستقر هناك فترةعشرة أعوام اكتسب فيها علوماً جمّة وحضر دروس الأعلام والجهابذة والعباقرة في مختلف الميادين من العرفان والأخلاق والفقه والأُصول والفلسفة والرياضيات وهلمّ جرّا. فتتلمذ على يد كبار الأساطين والعلماء كالمرحوم آية الله العظمى النائيني والمرحوم آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصفهاني والمرحوم آية الله العظمى الشيخ محمد حسين الاصفهاني والمرحوم آية الله العظمى السيد حسين بادكوبه‌اى والمرحوم آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوانساري والمرحوم آية الله العظمى حُجت والمرحوم آية الله العظمى الحاج ميرزا على القاضي الطباطبائي. وكان يلقب هناك بالحسني الحسيني الطباطبائي.

سلوك العلّامة للعرفان:

يقول العلّامة ﷺ: عندما كنت في النجف الأشرف مشتغلاً بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية التقيت ذات يوم بالمرحوم آية الله العظمى الميرزا علي القاضي الطباطبائي فما كان ان توجّه اليَّ بهذه النصيحة وبادرني بهذه الموعظة قائلاً: «ان كنت تريد الدنيا فعليك بصلاة الليل، وإن كنت تريد الآخرة فعليك بصلاة الليل أيضاً» وكان هذا اللقاء المفاجيء غير المرتقب سبباً لإتصالي به والتعرف على شخصيته الفذة والتعلق به تعلقاً تامّاً حيث انفتحت عليَّ أبواب الرحمة وكان منشئاً لخيراتٍ

وبركاتٍ غمرتني وعمّت جميع جوانب حياتي حيث انقطعت إلى نفسي وتزكيتها والتربية والتهذيب تحت اشرافه واستفدت كثيراً من نفحات قدسه. فسقاني كؤوساً وافية في هذا الطريق لم يراودني الظمأ بعدها.

من ذلك ان العلامة ﷺ تعلم من استاذه هذا طرق التزكية والتهذيب فانقطع كثيراً إلى العبادة لا سيّما الاعتكاف بمسجد الكوفة و السّهلة والمداومة على الذكر وحضور القلب وعدم الغفلة عن وساوس النفس والشيطان، ومجاهدة النفس وأهوائها بترويضها حتّى أصبح هو الراكب لها وهي مركوبته ودابته يقودها آخذاً بلجامها غير منقادٍ لها ولا مركوب لشهواتها ونزواتها، فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام الّا عن حاجة ولا يغضب و يفرح ولا يكره ولا يحب إلّا طبقاً للموازين الشرعية الإلهية فيغضب ويكره ويحب ويفرح لله وهكذا قس على هذه ما شئت من سلوكياته وأخلاقه وأعماله فإنها أصبحت جميعاً رهينة أوامر الشارع المقدس ونواهيه رغم انّه لم يكن معصوماً إذ العصمة منزلة خاصة ومرتبة محصورة لأهلها. وقد صرح ﷺ في بعض مجالسه ان «كلَّ ما عندى انّما هو من بركات وفيوضات المرحوم القاضي الطباطبائي أعلى الله مقامه الشريف». ومن العجيب ان العلامة واستاذه العارف الكامل السيد القاضي الطباطبائي قد تساوت فترة حياتهما وطول أعمارهما، حيث عاش كل منهما واحداً وثمانين عاماً. وكان من شدة تعلقه باستاذه انّه لم يستعمل الطيب والعطور طيلة عامين بعد وفاته، وقيل طيلة ثلاثين عاماً بعد وفاته.

المؤلف والعلوم العقلية:

صرّح ﷺ في بعض مكتوباته انّه أخذ الفلسفة من استاذه السيد حسين بادكوبه‌اى وهو أحد أبرز علماء الفلسفة والحكمة المتعالية، فقرأ عنده منظومة

السبزواري والأسفار الأربعة والمشاعر وكلاهما للمولى صدر المتألهين ﷺ ودورة الشفاء للشيخ الرئيس ابن سينا ﷺ كاملة، وكتاب اثولوجيا وتمهيد القواعد لابن تركه وهو من كتب العرفان، وكتاب الأخلاق لابن مسكويه.

اضف إلى ذلك انّه تعلم الرياضيات والحساب والهندسة المسطحة والفضائية والجبر الاستدلالي عند المرحوم السيد أبو القاسم الخوانساري وهو من خبراء هذا الفن.

الفقه والأُصول:

حضر خارج الفقه والاصول دورة كاملة عند استاذ الفهقاء والاصوليين صاحب المعقول والمنقول الآية العظمى والفيلسوف الحكيم المرحوم الكمپاني الاصفهاني «قدس الله نفسه الزكية»، كما تلمّذ في ذلك على يد المرحوم آية الله العظمى النائيني «قدس الله نفسه الزكية» لفترات عديدة وسنوات مديدة حتّى نال مرتبة الاستنباط وحاز على اجازة الاجتهاد من هذا العالم النحرير والبحر الزاخر، الذي يعجز المرأ عن كمال وصفه وأداء حقه فقد كان المرحوم النائيني ﷺ من أبرز تلامذة المرحوم الآخوند الخراساني ﷺ بل الأبرز على نحو التصريح والتحقيق، وهكذا المرحوم الميرزا حسن الشيرازي ﷺ، والمرحوم السيد محمد الفشاركي ﷺ، تربّع عرش المرجعية وتقلد زمام امور الطائفة وانحصر به كرسي الزعامة في الحوزات العلمية قاطبة بعد رحيل شيخ الشريعة الاصفهاني ﷺ، فاختص بهذا المقام وزانت به هذه المراتب فجاء بما لم يسبقه أحد في الفقه والاصول، وزيّن محافل التدريس ومجالسه بآراء في الفقه والاصول بهرت عقول الطلاب وادهشت عقول العلماء، لا سيما في علم الاصول حيث كان مبتكراً مجدّداً، وقد خلّده التاريخ مجدّداً مغيراً محيياً بحراً موّاجاً لا

ساحل له ومحيطاً لا تبلغ أعماقه. إذ أحدث تحولاً عظيماً في الفقه والاصول على مذهب أهل البيت عليهم أفضل صلوات المصلين، واسس بنياناً واحدث نمطاً جديداً من الفقه الحكومتي على اساس من السنة وروايات أهل البيت عليهم آلاف التحية والتسليم ولهذا أُطلق عليه في بعض كتب التراجم عنوان مجدّد علم الاصول.

لقد صنّف (اعلى الله مقامه الشريف) أكمل وأفضل وأجمع كتاب وأرتبها في التحليل الاصولى والبرهنة الشرعية والاستدلال العقلي والعقلائي حول نظام الحكم في الاسلام على مذهب أهل البيت عليهم الصلاةوالسلام ليكون دستوراً بديلاً واسلوباً شرعياً يحلّ محلّ الأنظمة الفاسدة ويقوم مقام الأجهزة المستبدة الغاشمة، وسمّاه «تنبيه الامة وتنزيه الملّة». فهو عالم مجدّد مجاهد شارك في ثورة العشرين وكان الساعد الأيمن للمرحوم الآخوند الخراساني﵀ في مواجهته وتصدّيه للاستبداد والطغيان الحاكم آنذاك في ايران. فقد كان مسؤولاً عن كتابة رسائل المرحوم الآخوند وبياناته الثورية والسياسية، كما انّه كان أحد أعضاء اللجنة التي تم تشكيلها في الكاظمية بأمر من زعيم الحوزة وعلمائها للتصدي ومواجهة الاستبداد في ايران حينذاك ومحاربة الاستعمار البريطاني المحتل للأراضي الايرانية.

ثمّ انّه ألف كثيراً في الفقه والاصول، بَيْدَ أنّه امتنع عن طباعتها ونشرها قيل لحرصه على دقة التعبير والانشاء ولعلّه لتواضعه وكثرة اهتمامه بتزكية نفسه وتهذيبها وخوفاً من الرّياء والسمعة والله العالم، وهناك بعض تلاميذه الذين قرّروا دروسه وحافظوا على أفكاره المنيرة منهم المرحوم الكاظمي﵀ والمرحوم آية الله العظمى السيد أبوالقاسم الخوئي﵀ في كتاب أسماه «أجود التقريرات» وحقاً انها أجود التقريرات فهنيئاً للمؤلف الكاتب والمكتوب له وجعل مثواهما الجنّة.

فكان رحمه الله كثير الاهتمام بالعبادة والتهجد والتهذيب والتزكية والمراقبات